دلالات الألوان في القرآن الكريم

د . أحمد إبراهيم خضر اللهيبي (*)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الآمين وعلى اله وصحبه الطاهرين وبعد فهذا بحث في الألوان في القرآن الكريم رتبناها حسب الكثرة، فبدأنا بأكثر الألوان وروداً ثم الأقل فالأقل، وقد استندت في البحث إلى دلالة الألوان عند العرب في كلامهم شعراً ونثراً إلى دلالتها الحسية ثم الانتقال إلى دلالتها المعنوية المجردة وتأثيرها في النفس الإنسانية، ثم دلالتها في القرآن مبيناً العلاقات الترابطية بينها من حيث الدلالة، مستشفاً منها ما أفادته هذه الألوان من معانٍ ودلالات على سبيل الحقيقة والمجاز من خلال التفاسير القرآنية وكتب الدراسات القرآنية القديمة والحديثة.

إن اكثر الألوان وروداً في القرآن الكريم اللون الأبيض لذلك قدّمناه على ما سواه من ألفاظ، ثم اللون الأخضر، ثم الأسود، ثم الأصفر، ثم الأحمر، ثم الأزرق، ثم استعمل القرآن الكريم ألفاظا تدل على الألوان بما يتسق والمعنى الذي يتفق معها وما إلى ذلك من الألفاظ، إلا أن هذه الألفاظ الثانوية ليست لها صفة خاصة بها وإنما هي ألوان ثانوية تتحقق من خلال الألوان الأساسية التي سنذكرها، فالغبرة والقترة

(*) مدرس في قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

والعرب عمدت إلى نواصع الألوان فقالت: (ابيض يَقَّق، وأسود حالك، واحمر قانئ، واصفر فاقع، واخضر ناضر)[1].

وكل الألوان الأساسية والثانوية استعملها القرآن الكريم في صور بديعة ورائعة تكشف عن عظمة الله عز وجل وإعجاز كلامه الذي أبهر البلغاء وحيّر الفصحاء من العرب وغيرهم.

اللون لغة واصطلاحاً

اللون عند الجوهري (ت 392هـ) هيئة كالسواد، واللَّون: النوع[2]، وهو عند ابن دريد (ت321هـ) "لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره"[3]، ويرى ابن فارس (ت395هـ) أن اللون "سحنةُ الشيء من ذلك اللونُ لونُ الشيء كالحُمْرةُ والسَّوادُ"[4]. ويؤكد ابن منظور (ت711هـ) دلالة اللون على الهيئة[5].

يتضح مما سبق أن معجمات اللغة تجمع على أن لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره والجمع ألوان.

وإذا ما وصلنا إلى الدراسات الحديثة وجدنا اكثر من تعريف اصطلاحي للَّون، فهو عند الفنانين التشكيليين والمشتغلين بالصباغة "المواد الصباغية التي

(1) كتاب الملمع، أبو علي النمري: 8.

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: 6/ 2197.

(3) جمهرة اللغة، ابن دريد: 3/ 176.

(4) مقاييس اللغة، ابن فارس: 5/ 223.

(5) ابن منظور: 3/ 416.

ومما تقدم يمكن أن نصل إلى تعريف توفيقي للون مُؤَداهُ أنه الصبغة اللونية الدالة على الهيئة التي يتم بها تمييز الأحمر من الأصفر المدركة بالعين لتوافر النور الذي يعمل على إثارة خلايا الدماغ فينتج عن تلك الإثارة الإحساس باللون(8).

وتختلف مفاهيم الألوان ورؤاها باختلاف الظروف النفسية عند الفرد، فضلا عما "توحيه الألوان من دلالات وما تؤثر به في النفوس من معانٍ تزيد من الترابط النفسي بين الفرد ومظاهر الحياة المختلفة فإن للألوان قيماً تعبيرية فهي أشبه ما تكون بالظلال من ناحية تجسيم المدركات، وإيضاح الشكل وإعطائه معنى وحياة"(9).

وإذا ما رجعنا إلى تاريخنا القديم وجدنا أن الإنسان منذ القدم قد تنبه إلى "الألوان الموجودة في بيئته وعقد معها علاقات سيئة أو حسنة، ووضع لها أو لبعضها ألفاظا تدل عليها وتميزها من غيرها، وقد اكتسبت هذه الألوان وألفاظها بمرور الزمن إلى جانب دلالاتها الحقيقية دلالات اجتماعية ونفسية جديدة نتيجة ترسبات طويلة أو ارتباطات بظواهر كونية أو أحداث مادية أو نتيجة لما يملكه اللون من قدرات تأثرية، وما يحمله من إيحاءات معينة تؤثر في انفعالات الإنسان وعواطفه"(10).

(6) نظرية اللون، يحيى حمودة: 7.

(7) سايكولوجية إدراك اللون والشكل: 5.

(8) الصورة اللونية في شعر السياب، د. شاكر هادي التميمي: 110، مجلة القادسية للعلوم التربوية، العدد الثاني، المجلد الثاني، طريقة العمل، 2002.

(9) أثر كف البصر: 117-118.

(10) الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات: 21.

وسنعرض فيما يأتي الألوان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مرتبة حسب كثرة ورودها فيه:

1. اللون الأبيض

البياض ضد السواد يكون ذلك في الحيوان والنبات وغير ذلك، والبياض لون الأبيض، وقد قالوا بياض وبياضة كما قالوا منزل ومنزلة[11]، وقد بيّض الشيء (تبييضاً) وبيضَهُ. كل شيء جوزته.

قالت العرب: فلان ابيض وفلانة بيضاء، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب، ومن ذلك قول زهير[12]:

امُّكَ بيضاءُ من قُضاعةِ في الـ بيتِ آلذي تستطلُّ في طَنَبِهِ

وكذلك قوله[13]:

أشمُّ أبيضُ فياضٌ يُفَكُّ مِن أيدي الفَناء وعن أنماقها الرَّبقَا

ويقال ارض بيضاء أي لا نبات فيها. على عكس ارض السواد[14].

ويقال كلمته فلم يرد عليَّ سوداء ولا بيضاء يعني كلمة حسنة وقبيحة ويقال لا يزايل سوادي بياضه أي لا يفارق شخصي شخصَه[15].

والأيام البيض: ليالي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري، لأن ضوء القمر يبلغ أوجه في تلك الليالي[16].

---

(11) لسان العرب: 8/ 390.

(12) شعره: 35.

(13) شعره: 79.

(14) المعجم الوسيط: 1/ 87.

(15) اللغة واللون: 69؛ وينظر: المعجم الوسيط: 1/ 87.

(16) لسان العرب: 8/ 392.

والرُّثة: بياض في الجحفلة العليا، فإذا كان في السفلى فهو ألحظ وحَرُّ كلُّ شيءٍ كريمه، والأبيض بمعنى الواضح، قال عمرو بن شاس من الطويل:

فـإنَّ عـراراً إنْ يكـُنْ غيـر واضـحٍ فإني أحبُّ الجونَ ذا المنكـَبِ العَمَمْ

والجون أطلق على البياض والسواد[17].

ويقال أبيض بض، هو الرقيق البشرة الذي يؤثر فيه كل شيء وامرأة غضة وبضة وبضيضة.

والعرب تقول للضبي الأبيض ريم، والجمع آرام، قال امرؤ القيس ابن حجر الكندي[18]:

مـن البـيض الآرام والأدم كالـدُّمى حواضِنُـها والمُبْرَقـات الرَّوائـي

ورد اللون الأبيض في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية وهو اكثر الألوان استعمالا في القرآن الكريم، وأغلب ما استعمل هذا اللون في صفة وجوه المؤمنين الصالحين دلالة على النقاء والبشر والسرور وحسن المآب وفيما ضرب الله من المعجزات الربانية، فقد اقترن هذا اللون بالطهر والنقاءِ والصفاءِ والسرورِ والبهجةِ والبُشرى.

أ. في صفة الوجوه

قال الله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[19]. أي تبيَضُّ وتسودُّ، والبياض من النور،

(17) كتاب الملمع: 21.

(18) كتاب الملمع: 27.

(19) سورة آل عمران، الآيتان: 106-107.

فالبياض مجاز عن الفرح والسرور، والسوادُ الغمُّ، وهذا مجاز مستعمل، قال الله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ)[21].

ويقال لفلانٍ عندي يد بيضاء أي حِليةٌ وسارةٌ، وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلبه:ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة والسرور يقولون: الحمد لله الذي بيَّضَ وجهَكَ، كما أن هذا البياض والسواد يكونان في وجوه المؤمنين والكافرين لأن اللفظ فيه حقيقة، قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)[22]. فجعل الغبرة والقترة مقابل الضحك والاستبشار[23]. قال ابن عاشور: "وحُمِلَ على الحقيقة إذ يرى الرازي (ت606هـ) أن البياض والسواد حقيقتان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة وهما بياض وسواد خاصان وقُدِّمَ عند وصف اليوم ذكرُ البياض الذي هو شعار أهل النعيم لأن رحمة الله سبقت غضبه"[24].

وهذا المعنى يتناسب مع قول أبي طالب في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال[25]:

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهِهِ ربيعَ اليَتامى عِصْمَةً للأرامِلِ

(20) الكشاف: 1/ 399.

(21) سورة النحل، الآية: 58؛ وينظر: المفردات، الراغب: 66.

(22) سورة عبس، الآيات 39، 40، 41.

(23) التفسير الكبير: 28/ 17؛ وينظر: التقابل الدلالي، منال صلاح الدين عزيز: 126، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

(24) التحرير والتنوير: 4/ 44.

(25) كتاب الملمع: 4، 4.

فالعرب تدعي البياض وتمدح به نساءها ورجالها، قال حسان بن ثابت يمدح آل جفنة[26]:

بـــيضُ الوجـــوه كريمـــةٌ أحـــسابُهم شـــمُّ الأنـــوفِ مـــن الطـــراز الأوّلِ

وأغلب ما استعمل الأبيض في القرآن الكريم مقابلاً للأسود، وهذا من أساليب القرآن البليغة، إذ أنّ البياض لا يُعطي الصفة التي يعطيها إلاّ مع ذكر السواد، فقد قابل بياض المؤمنين بسواد المشركين وسرور المؤمنين بهموم الكافرين.

ب. في صفة اليد

قال تعالى: (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)[27]. قال ابن عباس رضي الله عنه وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض[28]، ولمّا كان البياضُ كالعيبِ عند العرب كالبرص وما إلى ذلك، فقد أوضح تباك وتعالى في آية أخرى في تحديد ذلك البياض بقوله تعالى: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)[29]. السوء: الرداءة، والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوأة، يروى أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يَغشي البصر، ومن غير سوء من صلة لبيضاء، كما نقول أبيضَّت من غير سوء[30].

(26) م. ن: 4.

(27) سورة الأعراف، الآية: 108.

(28) الكشاف: 1/ 101.

(29) سورة طه، الآية: 22.

(30) الكشاف: 2/ 533.

يروى أنه عليه السلام كان شديد البياض من غير برص، فإذا أدخل يده اليمنى تحت إبطه كانت تبرق وقيل مثل الشمس من غير برص، ثمَّ إذا ردها عادت إلى لونها بلا نور[31].

ج. في صفة الخمر

قال الله تعالى: (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)[32] فقوله: (لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) صفة للخمر، قال الأخفش: وخمر الجنة اشد بياضاً من اللبن[33].

أما قوله تعالى: (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)[34]، فيعني المستور، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البَيْض بياضٌ يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة[35].

و (بيضاء) صفة للكأس وإذا أريد بالكأس الخمر الذي فيها كان وصف (بيضاء) للخمر[36]. وفي الآية وصف لنساء أهل الجنة بأنهنَّ قاصرات الطرف مع حُسن العيون لا من شين يَمنَعُهنَّ من طموح النظر، وإنما ذلك للعفةِ والخَفْر ثم شبَّهَهُنَّ بالبيض المكنون تأكيدا لصفة التشبيه، فأشار في ذلك إلى أنهنَّ في سترٍ عن التبرج وجعل وصف البيض دالا على هذه الحال من وصفهن[37].

(31) التفسير لكبير: 2/ 30.

(32) سورة الصافات، الآيتان 45-46.

(33) معاني القرآن: 2/ 112.

(34) سورة الصافات، الآيتان: 48-49.

(35) التفسير الكبير: 26/ 137-138.

(36) التحرير والتنوير: 23/ 113.

(37) الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغدادي: 234.

د. في صفة الخيط على سبيل الكناية

قال الله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)[38]. وهو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود والخيط الأسود ما يمتَدُّ معَهُ من غَبَشِ الليل، شبههما بخيطين ابيض واسود، قال الشاعر:

فَلَمَّا أضاءَتْ لنَا سَدْفَةٌ ولاحَ من الصبح خيطُ أنارَا

وقوله: (مِنَ الْفَجْرِ) بياض للخيط الأبيض[39].

ويدل ذلك قطعاً على أنه تعالى كَنَّى عن بياض أول النهار وسواد آخر الليل وفيه أشكال، وهو أن بَياضَ الصبح المشبَّهِ بالخيط الأسود هو بياضُ الصبح الكاذبِ، لأنه بياض مستطيل يشبه الخيط وأما بياض الصبح الصادق فهو بياض مستديرٌ في الأفق وبالإجماع أنه ليس كذلك لأنه ذكر (مِنَ الْفَجْرِ) فدلَت الآية على أن الخيط الأبيض من الفجر فهي الحداد من الصبح الكاذب[40].

2. اللون الأخضر

الخضرة من الألوان: ويكون ذلك في الحيوان والنبات وغيرهما مما يقبله، وحكاه ابن الأعرابي في الماء أيضا، وقد اخضرَّ وهو أخْضَرَ وخَضُور وخَضِير ويَخْضُر ويَخْضور، قال العجاج يصفُ كُناس الوحش[41]:

في الخَشَب تحتَ الهَذبِ اليَخْضُور مَثْوَاهُ عَطَّارينَ بالعُطُور

---

(38) سورة البقرة، الآية 187.

(39) الكشاف: 1/ 230؛ وينظر: الصحاح: 4/ 1372.

(40) التفسير الكبير: 50/ 110.

(41) لسان العرب: 8/ 215؛ وينظر: ديوانه: 23.

وأطلقت العرب اسم الخَضْرَةِ على البقلةِ الخضراءِ. كذلك قال طرفة بن العبد[42]:

كـــــبَناتِ المَخْـــــرِ بمـــــأدْنَ إذا أنــبْتَ الــصَّيْفُ عَـسَالِيجَ الخَــضْرِ

والخُضْرةُ عند العرب أيضا الخِصْبُ والنَّعيمُ، وفيه قول عتبة بن أبي لهب:

وأنـــا الأخْـــضَرُ مَـــنْ يعرفـــُني أخْـضَرُ الجِلْـدَةِ مـن بيـتِ العَـرَب

ويريد باخضرار الجلدة الخصبُ والسمعةُ.

كما أطلقوا على الأمر الأخضر، أيَّ حديدٍ تخلقُ المودَّةُ بينهم. والخَضِرَةُ من النساء: التي لا تكاد تُتِمُ حَمْلاً حتى تُسْقِطهُ[43].

ونُعِتَتْ به الأرضُ التي كسَاهَا النباتُ الأخضرُ من كَثرةِ هطولِ المطرِ عليها، قال الأعشى[44]:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحزنِ مُعْشِبةٌ خضراءُ جَادَ عليْها مُسْبِلٌ هَطِلُ

والأخضر من الألوان البهية التي تطمئن لها النفس وترتاح إليها الضمائر لما له من دلالات ترتبط بالحياة والنمو والخصب والديمومة والسعادة والارتياح والسرور والبهجة وهذه الدلالات ملاصقة له لا تتخلى عنه لأنه مرتبط بالماء والماء مصدر الحياة والنمو، فقد قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَي)[45]، فهو اللون الذي تتجمل به الطبيعة ويألفه كل من عليها ويُسَرُّ. وقد جاء هذا اللون في

(42) ديوان طرفة: 145.

(43) لسان العرب: 8/ 217.

(44) ديوانه: 57.

(45) سورة الأنبياء، الآية: 30.

أ. في صفة النبات كناية عن الحياة والنمو

قال الله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرا)[47]، فقوله: (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ) أي من النبات (خَضِرا) غضاً أخضَر يقال: اخضَرَّ وخَضِر كأعْوَر وعَورَ وهو ما تشعَّبَ من اصل النباتِ من الحبَّةِ[48].

قال الزجاج "معنى خَضِر كمعنى اخضر[49]". وقال الليث: "الخضر هو الزرع وفي الكلام هو كل نبات من الخضر". وقال ابن عباس رضي الله عنه: "يريد القمحُ والشعيرُ والذرةُ والسلكُ والأرزُ، والمراد من هذا الأخضر العودُ الأخضرُ الذي يَخرج أولاً ويكون السنبلُ في أعلاه"[50].

ويطلق الخضر على النبات الرطب الذي ليس بشجر كالقصيل والقضب، وفي الحديث: ((وأن مما ينبتُ الربيعُ، ما يقتلُ حبها أو يَلمُّ إلاّ آكلة الخَضِر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها))[51]، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(46) سورة الروم، الآية: 30.

(47) سورة الأنعام، الآية: 99.

(48) الكشاف: 2/ 51.

(49) التفسير الكبير: 17/ 108.

(50) العين: 8/ 175.

(51) سنن ابن ماجة: 2/ 145، وينظر: التحرير والتنوير: 7/ 399.

وقد اختير اللون الأخضر في التعبير عن النبات بذكر اللون الأخضر، لأن ذلك اللون ممتع للأبصار ، فهو أيضا موجب الشكر على ما خلق الله من جمال[54].

ويقال اخضرُ ناضِرُ واخضرُ باقِل، قال الراعي[55]:

إذا ما دَعَتْ شَيْبِيَ بِجَنْبِي عُنيزةٌ مَشافِرُهَا في ماءِ مُزْنٍ وباقِلِ

وكذلك اخضر حانيء يقال حنأتِ الأرض تحنأ حُنُواً: إذا اخضرَّت والتَفَّ نَبْتُها وهي نحو الأقحوانة حانئةُ الخُضرةِ أي شديدةُ الخضرةِ أو أخضر زاهر، واخضر مُدْهامٌّ، قال الله تعالى: (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* مُدْهَامَّتَانِ)[56]. أي خضراوان[57]، وفي التنزيل العزيز: (مدهامتان) أي سوداوان من شدة الخضرة من الري، يقول خضراوان إلى السواد من الري، قال الزجاج: "تعني أنهما خضراوان تضرب خضرتهما إلى السواد والدهمة عند العرب: السواد، وإنما قيل للجنة: مدهامة، لشدة خضرتها[58].

(52) سورة الحج، الآية: 63.

(53) التفسير الكبير: 23/ 62.

(54) التحرير والتنوير: 17/ 318.

(55) ديوانه: 77.

(56) سورة الرحمن، الآيات: 62، 63، 64.

(57) كتاب الملمع: 101- 102.

(58) كتاب الملمع: 102 (هامش المحقق) نقلاً عن: لسان العرب: 15/ 99.

وقد وردت الخضرة وصفا للماء والبحر والكتيبة والحديد وغيرها، واستعمل القرآن الكريم (الأخضر) بالمعنى الذي يُستعملُ بهِ حاليا وذلك في قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً)[59]، وقوله تعالى: (وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ)[60].

ففي قوله تعالى: (مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً) إذ ليس المراد بالأخضر اللون، وإنما المراد لازمة وهو الرطوبة، لأن الشجر اخضر اللون ما دام حيا فإذا جفّ وزالت منه الحياة استمال لونه إلى الغبرة فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته[61]، قال ذو الرمة[62]:

ولَمَّا تَنَمتْ تأكلَ الرمَّ لَمْ تَدَعْ ذوابلَ مِمَّا يَجْمَعونَ ولا خُضرا

3. اللون الأسود

السينُ والواوُ والدالُ اصلٌ واحدُ، وهو خلافُ البياضِ في اللون، ثم يُحمَلُ عليهِ ويُشتَقُّ منهُ، فالسواد في اللونِ معروفٌ، وعند قومٍ أنَّ: كلَّ شيء خالف البياض أي لون كان فهو في حيز السوادِ[63]، وجاء في تاج العروس: "قد سَوِدَ الشيءُ بالكسر وساوَدَ اسودَّ واسوِدَادَا واسوَّد اسوِياداً كاحمرَّ احميراراً: صار اسود[64]،

(59) سورة يس الآية: 80.

(60) سورة يوسف، الآية: 46.

(61) التحرير والتنوير 23/ 77.

(62) ديوانه: 176.

(63) مقاييس اللغة 114/3، ينظر الصحاح 2/ 490-491.

(64) 2/ 384.

فمـــا أجْـــشَمتِ مـــن إتيـــان قـــومٍ هُـــمُ الأعـــداءُ والأكبـــادُ ســـودُ

فوصف أكبادَهُم بالسوادِ ليدلَّ على شِدةِ عدائهم وبغضائهم، وكذلك وصفوا المصائب بالسود لأنها تذل القوم إذا حلّت بهم وتحزنهم فعبروا عن الحزن والذُلِّ بالسوادِ كما عبّروا عن الشرف والرفعة بالبياض[67].

ورد الجذر (س. و. د) في القرآن الكريم سبع مرات، وجاء دالاً في الغالب على اسـوداد الوجوه إشارةً إلى الهمِّ والحَزَنِ والكَدَرِ والغمِّ والخُمول.

أ. في صفة الوجوه دالاً على العقاب الأخروي

في قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)[68]، وفي (تَسْوَدُّ) قال المفسرون: البياضُ سيماءُ المؤمنين، والسوادُ سيماءُ المجرمين[69]، وذلك يكون عند قراءةِ الكتابِ، فإذا قَرأ المؤمنُ كتابَهُ فرأى سيئاتَه اسودَّ وجْهَهُ، وقيل: أن ذلك عند الميزان، وقيل: إنما يكون ذلك[70]، عند قوله تعالى: (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)[71].

(65) الحيوان: 3/ 247.

(66) ديوانه: 38.

(67) التعابير القرآنية: 143.

(68) سورة آل عمران، الآية: 106.

(69) معاني القرآن، الفراء: 119/1، وجامع البيان: 26/4، والكشاف: 453/1.

(70) الجامع لحكام القرآن: 166/4.

(71) سورة يس، الآية:59.

وقد اختلفوا في تعيين أهل السوادِ وأهل البياض، فقال ابن عباس رضي الله عنه تبيَضُّ وجوهُ أهلِ السنة، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البدعة، وقد قيل أن أهل البياض هم المهاجرين والأنصار، وأهلُ السوادِ هُم بنو قريظة والنظير[72].

والراجح لدينا أن الكلام عام يراد بالبياض المؤمنون عامة الذين يدخلون الجنة ويراد بالسواد عامة الكفار، ذلك لأن من وسِم بالبياض كان من أهل الحق من اشراقِهِ، ومن كان من أهل الباطل وسم بالسواد من كسوفِهِ وكَـمَدِهِ وحُزْنِـهِ، فاللفظ هنا أطلق على المجاز، وما يرجح هذا الرأي ويُعضِّدَهُ أن ذلك المحسوس حاصل عليهم سواء كانوا في الدنيا بيضا أم سودا[73]، وقد حمل بياض الوجوه وسوادها على الحقيقة في قول أبي بن كعب وقتادة السدوسي والزجاج والطوسي وغيرهم[74]، فمن كان من أهل الإيمان ابيض وجهه واشرق، ومن كان من أهل الكفر اسود وجهه وأظلمت صفحته وأحاطته الظلمة من كل جانب عقوبة له على كفره[75].

والراجح أنَّهُ من باب الكناية، فالبياض كناية عن البهجة والسرور والسواد كناية عن الغم والكآبة والذُلِّ والفَزَع والتَشاؤُم، لأن ذلك حاصل لهم سواء كانوا في الدنيا سوداً أم بيضاً.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرب تقول لمن فاز بـبُغْيتِه ونال مطلوبَهُ أبيضَّ وجهُهُ ومعناهُ الاستبشارُ والتهللُ" وعند التهنئة يقولون الحمد لله الذي

(72) الجامع لأحكام القرآن:167/4.

(73) المفردات: 246.

(74) الكشاف: 453/1.

(75) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 167/4.

يتبين مما سبق أن المشهد هنا حيٌّ لكنهُ منبعثٌ من تأثُّرِ نفسي القي ظلّه على تلك الوجوه فأسودت، ومع أن هذا كفاية للدلالة على ما يجيش في نفوس هؤلاء فإنهم لا يتركون لما يعتلج في نفوسهم من شعور تبدو ظلاله على وجوههم[79]" وفي هذا زيادة في التحقير والخزي والرهق، ويحملُ على الدنيا فقط وربّما يتبعه في الآخرة.

ولا شك في ان الآية جمعت بين التعنيف بالقول والعذاب من جهة واستقرار المجرمين في لعنة الله على سبيل الخلود من جهة أخرى[80]، فعكس لنا التعبير القرآني الذوق العربي الذي فضّل الأبيض على الأسود وكره السواد فتشاءم منه فجاء التعبير شاملاً لكل الصور التي توحي بالبشاعة والقبح والبغض والهوان.

(76) التفسير الكبير: 170/8، وينظر: بصائر ذوي التمييز: 134/2.

(77) سورة النحل، الآية: 58.

(78) ينظر: المصطلح اللغوي في القرآن الكريم، الدكتور محي الدين توفيق: 230-240، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع، المجلد السابع والثلاثون، لسنة 1986.

(79) مشاهد القيامة: 204.

(80) البحر المحيط: 26/31، ألفاظ الثواب: 196.

وجاء اللفظ ثانية بصيغة (مُفعَلَّة) للمبالغة، قال تعالى: (تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ)[81]، قال ابن عاشور: "يجوز أن يكون اسوداد الوجوه حقيقة جعله علامة لهم وجعل بقية الناس بخلافهم، وقد جعل الله اسوداد الوجوهِ يوم القيامة علامة على سوءِ المصير كما جعل بياضها علامة على حسن المصير.

قال بمعنى صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظلّ لأن أكثر الوضع ينفق الليل فيظل نهاره معتماً مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس[82].

ويقال لمن لقي مكروهاً قد أسود وجهه غمّاً وحزناً، وأقول إنما جعل اسودا الوجه كنايةً عن الغم، لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب، وإذا قوي غم الإنسان احتقن الروح في بطنه ولم يبق أثر قوي في ظاهر الوجه فلا جرم يربدُّ وجههُ ويصفرُّ ويسودُّ ويظهرُ أثرَ الأرضية والكثافة، وأن من لوازم الغمِّ كمودةُ الوجهِ وغبرتُهُ وسوادُه، ولهذا السبب كمودة الوجه وسواده كنايةً عن الغم والحزن والكراهية[83].

ب. في صفة الجبال

قال الله تعالى: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)[84]. ففي قوله: (وَغَرَابِيبُ) وهو معطوف على جُدُد أو على بيض كأنه قيل: ومن الجبال مخططٌ ذو جددٍ ومنها ما هو على لون واحد (غرابيب)، وعن عكرمة

(81) سورة الزمر، الآية: 60.

(82) الكشاف: 612/2.

(83) التفسير الكبير: 12/26.

(84) سورة فاطر، الآية: 27.

والغربيب مؤكد فالأقل، يقال اسود غربيب والمؤكد لا يجيء إلا متأخرا فكيف جاء (وَغَرَابِيبُ سُودٌ). قال الزمخشري: غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه قال: اسود غربيب ثم أعاد السود مرة أخرى للتوكيد[86].

قال الشاعر[87]:

أبقى لنا اللهُ وتقعيرُ الجَرْ سوداً غرابيب كأطلال الحَجَرْ

ج. في صفة الخيط على سبيل الكناية

قال الله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)[88]. قيل الخيط الأسود ما يمتد من غبش الليل مع الفجر المعترض[89]. والعرب سمّت الأسود اخضرا، قال ذو الرمة[90]:

وارضٌ خلاءٌ تسحَلُ الريحُ مَتْنَها كَسَاها سَوادُ الليّل أرديةٌ خُضْرا

وقال القطامي[91]:

يا ناقُ سِيري خَبَبَاً زَوْرَا وقلبِي قَيْسَمُكِ المُغْبَرَا

وعَارضي الليّلَ إذا ما أخضَرَّا سَوفَ تلاقينَ جَوَاداً حراً

(85) الكشاف: 3/ 609.

(86) التفسير الكبير: 26/ 21.

(87) كتاب الملمع: 63.

(88) سورة البقرة، الآية: 187.

(89) الكشاف: 1/ 231.

(90) ديوانه: 175.

(91) لسان العرب: 1/ 97.

4. اللون الأصفر

الصُّفرة من الألوان معروفة تكونُ في الحيوان والنبات وغير ذلك، وحكاه ابن الأعرابي في الماءِ أيضا وقد اصفَرَّ واصْفَارَّ وهو أصفَرُ.

قال الفرّاء: الصفر سودُ الإبل لا يُرى اسود من الإبل إلا وهو مُشْرَبُ صُفْرةٌ ولذلك سمّت العربُ سود الإبل صُفْراً، كما سمّت الضياء ادماً لما يعلوها من الظلمة في بياضها[92]، قال الأعشى[93]:

تِلْك خَيلي منه وتلْك ركابِي هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيب

وقيل الصُّفْرَةُ لون الأصفر أما الأصْفِيرار فَعَرَضٌ يَعرضُ للإنسان، ويقال أصفار مرة وأحمار أخرى.

والصَفرة بالفتح الجَوْعَةُ وبهِ فسّر قوله صلى الله عليه وسلم: ((صُفْرَةٌ في سبيل الله خيرٌ لك من حمر النعم))[94].

وقد أطلقت العرب الأصفر على الذهب لما يلازمه من الصفرة الدائمة، لذلك قالت العرب: اهلك النساء الأصفران الذهب والزعفران والصفراء الذهب[95].

ورد اللون الأصفر في خمسة مواضع في القرآن الكريم في صفة الحيوان والنبات، وهذا اللون من الألوان الواضحة المألوفة.

أ. في صفة الحيوان

(92) لسان العرب 1/ 96؛ ومعاني القرآن: 1/ 48.

(93) ديوانه: 335.

(94) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: 3/ 36.

(95) ينظر: الكشاف: 1/ 331.

قال الله تعالى: (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)[96].

(فاقع) هنا تأكيد الصفراء، والفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل شديد الصفرة صفرتها مثل قولنا جَدَّ جدَهُ وجَنَّ جنونَهُ، وعن وهب أنه قال: إذا نظرت إليها خيّل إليك أنَّ شُعاعَ الشمسِ يخرجُ من جلدها[97].

فالفقوع للصفرة، لأن صُفرةِ البقرِ تضربُ منه الحمرة غالبا فأكده بفاقع، والفقوع خاص بالصفرة[98].

فبرغم أن اللون الأصفر من الألوان التي تستطيع العين التركيز عليها وبرغم أن البقرة فاقع لونها فانهم مجادلين، قال الله تعالى: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا)[99]، مراء وجدال أعان على ظهوره في القوم لون من الألوان. وفي قوله: (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) أي على وجه الخصوص وهم القوم المجاورون دلالة على انهم على طرفي نقيض في سلوكهم لأن الذين يفضلون اللون الأصفر أحد طرفي نقيض: إما أن يكون شخصا متمتعاً بمقدرة ذهنية كبيرة وإما أن يكون متخلفاً ذهنياً[100].

وأن اللون الأصفر لصلتهِ بالبياض وضوءِ النهارِ ارتبط بالتحفز والتهيؤ للنشاط واهم خصائصه اللمعان والإشعاع وإثارة الانشراح لأنه أخف من الأحمر

(96) سورة البقرة، الآية 69.

(97) التفسير الكبير: 1/ 133.

(98) التحرير والتنوير: 1/ 553.

(99) سورة البقرة، الآية: 70.

(100) دراسات لغوية في القرآن: 122.

ب. في صفة النار

قال الله تعالى: (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)[102]، جمالة جمع جمل، شبهت بالقصور، ثم شبهت بالجمال لبياض التشبيه، ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل، وقيل (صفر) لإرادة الجنس، وقيل (صفر) سود تضرب إلى الصفرة، قال عمران الخارجي[103]:

دَعتــْهُم بــأعلى صــوتِها وَرَّقتــهَم بمثلِ الجمالِ الصُفرِ نزاعةُ الشوى

فالأكثرون على أن المراد فيه سود تضرب إلى الصفرة، قال الفرّاء: "لا يُرى اسود إلا وهو مُشْرَبٌ صُفْرَةٌ. والشرر إذا تطاير فسقط وبقي منه لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة[104].

ج. في صفة النبات:

قال الله تعالى: (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)[105]. أي إذا أرسل الله ريحا فضرب زروعهم بالصفار صمتوا وكفروا بنعمة الله، والريح التي اصفر لها الزرع يجوز أن تكون حروراً وحريضاً، فكلتاهما

(101) اللغة واللون: 184.

(102) سورة المرسلات، الآيتان: 32، 33.

(103) الكشاف: 4/ 681.

(104) ينظر: معاني القرآن: 3/ 226؛ والتفسير الكبير: 30/ 277.

(105) سورة الروم، الآية: 51.

وسُمِّيت النافعة رياحاً والضارة ريحاً فالأولى تهب كل يوم وليلة والثانية لا تهب إلا في أعوام، وهذا لا يكون بهبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جداً[107].

والاصفرار في الزرع ونحوه مؤذن بيبسه، وسمّوا صفاراً بضم الصاد وتخفيف الفاء وأن يصيب الزرع[108].

وكذلك قوله تعالى: (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً)[109]، أي بعث الله عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً، عقوبة لهم على جمودهم، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين[110].

5. اللون الأحمر

الحمرة من الألوان المتوسطة المعروفة واللون الأحمر يكون في الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقبله، وحكاه ابن الأعرابي في الماء أيضا: "وقد احمر الشيءُ واحمارَّ بمعنى، ويقال احمرَّ الشيء احمرَاراً إذا لَزِمَ لونُه ولم يتغير، والعرب إذا ذكرت شيئا بالشدة والمشقة وصفته بالحُمْرة"[111].

(106) الكشاف: 3/ 486.

(107) التفسير الكبير: 25/ 134.

(108) التحرير والتنوير: 21/ 125.

(109) سورة الحديد، الآية: 20.

(110) الكشاف: 4/ 479.

(111) لسان العرب: 15/ 37.

ويقال رجلٌ أحمرٌ، والجمع (الأحامر) فإن أردت المصبوغ بالحمرة قلت: أحْمَر والجمع حُمْر وموت أحمر يوصف بالشدة وسنةٌ حمراءُ: شديدة[112].

وقيل الأحمر هو ما لونه الحُمْرَةُ، والأحمرُ الأبيضُ ضِدٌّ وبه فَسَّرَ بعض الحديث ((بُعثْتُ إلى الأحمر والأسود)) والعربُ تقول: امرأةٌ حمراءُ أي بيضاءُ، والأحامِرةُ: اللَّحمُ والخَمْرُ والخَلُقُ[113]، قال الأعشى[114]:

إنَّ الأحـــامِرةَ الثـــَّلاثة أهْلكـــَتْ مـــالِي، وكنـــتُ بهـــا قـــديماً مولـــَعا

ويقال حمراءُ العجانِ كلمةٌ تقولها العرب في السب والذم وفلان احمر أي لا سلاح له، وابن الحمراء هو ابن الأمة. وجاء في الأمثال (الحسن أحمر) بمعنى أن الحسن في الحمرة أو أن الوصول إليه يكون بمشقة وصبره على المكاره[115].

واستعلوا الضوء الأحمر في الطرق دلالة على الخطر والحرية الحمراء وهي التي تنتزع من المستعمر بعد معارك دموية. والعين الحمراء رمزاً للقسوة وشدة صاحبها واظهر العين الحمراء أي تهدده وتوعده[116].

ورد اللون الأحمر في موضعين صريحا، فقد أطلق على الحيوان وعلى الجبال، كما ورد بما يدل عليه في وصف يوم القيامة في القرآن الكريم في عدة مواضع وهذا اللونُ قد يستثير الأحاسيس استثار حادّة.

أ. في صفة الجبال

(112) مختار الصحاح: 154.

(113) تاج العروس: 13/ 213.

(114) نسبه الزبيدي للأعشى، ولم أجده في ديوانه بتعليق الدكتور محمد حسين.

(115) المعجم الوسيط: 219، وينظر: جمهرة الأمثال:

(116) اللغة واللون: 76.

قال الله تعالى: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) [117]. وألوانها أي أجناسها من الرمان والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها[118].

ولكن الآية جمعت من الحسن صنوفاً من الانسجام بين الأبيض والأحمر، ويقول العلماء بتأثير اللون في حجم الأشياء، فالأشياء الصفر تبدو اكثر الأشياء إطلاقا يليها الأحمر فالخضر ثم الزرق وأخيرا السود[119].

ب. في صفة يوم القيامة

قال الله تعالى (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) [120]، فقد اقسم الله بحمرة الأفق لبيان أهوال يوم القيامة[121]. وقوله تعالى: (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [122].

أي: فكانت حمراء، لأنه يقال فرس ورد أي احمر ورد. والدهان مدهن الزيت، وقيل الدهان الأديم الأحمر[123]. وسبب الاحمرار كمتعلق بما سبقها في قوله تعالى: (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ) [124].

(117) سورة فاطر، الآية 27.

(118) الكشاف: 3/ 609.

(119) دراسات لغوية في القرآن: 119.

(120) سورة الانشقاق/ الآيتان: 16-17.

(121) الكشاف: 4/ 656.

(122) سورة الرحمن، الآية: 37.

(123) الكشاف: 4/ 499.

(124) سورة الرحمن، الآية: 35.

فالشواظ لهب النار أي لسانه ومثل ذلك لا يقال إلا للمختلط بالدخان الذي من الحطب فلهيبها يصل إلى السماء ويجعلها كالحديد المذاب الأحمر[125].

6. لون القترة

القاف والتاء والراء اصل صحيح يدل على تجمع وتطبيق من ذلك القترة بيت الصائد، سمي قترة لضيقه وتجمع الصائد فيه، والجمع قتر والأقتار: التضييق، ذلك أن صياد الأسد كان يقتر في قترته بلحم ويجد الأسد ريحه، فيقبل إلى الزبية، فقد سميت ريح اللحم المشوي قتاراً كيف كان[126]، قال امرؤ القيس[127]:

رُبَّ رامٍ مِنْ بني ثُعَلٍ مُتلجٍ كَفَّيهِ في قَتَّره

وقَتَرَ الشواءَ: هيَّجَ القتارَ، وقترَ اللحمُ يقترُ، ارتفعَ قِتارُه[128]، وفي الحديث النبوي الشريف قال صلى الله عليه وسلم: ((ولا تؤذ جارك بقتار قِدْرِكَ)) [129]،

(125) التفسير الكبير: 29/ 114.

(126) مقاييس اللغة: 21/ 55-56.

(127) ينظر: أساس البلاغة: 491؛ وديوان امرؤ القيس: 123.

(128) أساس البلاغة: 491.

(129) سنن ابن ماجه: 5/ 33، وينظر: أساس البلاغة: 491.

إليـــكَ تـــعَرَّقنا الـــدُرى برحالهـــا وكلُّ قتارٍ فـي سـلامي وفـي صُلْـب

ثم تطور اللفظ واصبح يدل على ما ارتفع وعلا من دخان واسوداد كالغبرة، جاء في المفردات القترة: نحو غبرة وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب[131]، وهذا المعنى الأخير متطور عن الأصل الحسي للفظ اختصار له.

وورد الجذر(ق . ت . ر) في القرآن الكريم خمس مرات، ودلّ على العقاب الآخروي في موضعين أحدهما في قوله تعالى واصفا وجوه المجرمين يوم القيامة (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) [132]أي غبرة[133]، وقيل سواد كالدخان[134].

قال الزمخشري: "سواد كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه[135]، ولو تتبعنا النص القرآني لوجدنا في السورة تقابلاً دلالياً بين صورتين متقابلتين، الأولى: وجوه المؤمنين المضيئة المتهللة الضاحكة، لما ترى من النعيم وهم الأبرار، تقابلها صورة وجوه الكافرين الكدرة المغبرة المظلمة التي ستنالها النار[136]، ويلحظ التقابل بين الفواصل، فالفواصل ذوات البسط في الصيغة (مسفرة، مستبشرة) توحي بانبساط وراحة نفسية المؤمنين، عكس

(130) تهذيب اللغة: 9/ 51، ولسان العرب: 6/ 379، وشرح ديوان الفرزدق: 130.

(131) المفردات: 139.

(132) سورة عبس، الآية: 41.

(133) مجاز القرآن: 387، وتفسير غريب القرآن: 515.

(134) الكشاف: 4/ 221، وتفسير ابن كثير: 474.

(135) الكشاف: 4/ 221؛ وينظر: تحفة الأرب: 217.

(136) التصوير الفني: 62.

7. اللون الأزرق

الزرقـةُ بعـضُ الألـوان بـين البيـاض والـسواد، يقـال: رجـلٌ ازرق العـين، والمـرأةُ زرقـاءُ بيَّـنة الـزُرق، والاسـم: الزُرقـة وَزَرَقـتْ عينـُه زُرْقـةً وزَرقـاً، وازراقَّت أزريقَاقاً[138]، وهو خلاف الكحل، والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمُّهُ من ذلك قولهم عدوٌّ ازرقُ[139]، وقد وردت الزرقة في الحديث النبوي الشريف دالـة علـى البغض وعدم الارتيـاح، ففـي وصـفه صـلى الله عليـه وسلم لمنكر ونكير قـال ((إذا قُبِرَ الميتُ أتاهُ مَلكان أسوَدان أزرقان)) [140]، والمراد تبشيع صـورتهما، قـال القسطلاني: "وإنمـا صـوِّرا كـذلك ليخـاف الكـافر ويتحير فـي الجـواب، وأمـا المـؤمن فيثبته بالقول الثابت فلا يخاف[141]، ويبدو أن الزرقة لا تطلق في أذم إلا على زرقة العيون، قال الشاعر:

لقـد زَرُقـت عينـاكَ يـا ابـن مكعـب كمـا كـلُّ ضـبي مـن اللـؤم أزرقُ

وقال ذو الرمة هاجياً قوماً لأنهم يسرقونه[142]:

(137) من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمود السيد سليمان، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، العدد 36 السنة 9، الكويت؛ وينظر: التقابل الدلالي: 157.

(138) كتاب العين: 5/ 89، وينظر: الصحاح: 4/ 1489.

(139) فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزيدي: 56.

(140) سنن الترمذي: 3/ 383.

(141) إرشاد الساري: 2/ 379؛ وينظر: التعابير القرآنية: 154.

(142) ديوان ذي الرمة: 36.

زرقُ العيـون إذا جَـاوَرتهم سَرقـُّوا مـا يَـسرُقُ العَبْـدُ أو نابأتـَهم كـذبوا

وهكـذا تبـين مـن المعـاني الحـسية أن الزرقـة اقترنـت عنـد العـرب بمعـانٍ يبغضها الذوق العربي ويمقتها.

ورد اللفظ في القرآن الكريم في هذه السورة المكية فقط دالاً على العقاب الآخروي في قوله تعالى: (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) [143]، وقد فسّرت الزرقة بمعانٍ عدة، فمنهم من فسّرها بالعطش الذي يصيب المجرمين يوم القيامة، ومن أولئك الطبري في قوله: "قيل عني بالزرق في هذا الموضع ما يظهر في أعينهم منه شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر وعندي لرأي العين من الزرق"[144] ، والى هذا ذهب ابن سيدة في توجيه تفسير الطبري، فقال: "وعندي أن هذا ليس على القصد الأول، وإنما معناه: ازرقت عيناه من شدة العطش"[145] ، ومع أن هناك آية قرآنية تصف سوق المجرمين عطاشا يوم القيامة[146]، فإن سياق الآيات العام الذي وردت فيه الزرقة، لا نجد فيه إشارة إلى ذكر الماء والتعذيب بالعطش، إلا أن الذي يتراءى هو التأثير القوي للبيئة العربية، حتى صار العربي يفسر بالعطش المعاني التي قد تبدو بعيدة عنه لشدة ما عانوا من حرمانهم من الماء في البيئة الصحراوية، ولأهمية الماء في حياتهم اليومية،

(143) سورة طه، الآية: 102.

(144) جامع البيان: 16/ 210.

(145) المحكم والمحيط الأعظم: 2/ 35.

(146) سورة مريم، الآية: 86.

(147) كتاب العين: 5/ 89.

الخاتمة

من خلال استقراء الآيات القرآنية الكريمة التي دلّت على الألوان تبين أن للون قيماً تعبيرية، فهي أشبه ما تكون بالظلال من ناحية تجسيم المدركات، فقد أعطى اللون الأبيض للمؤمنين سمة البشارة والفرح والتهلل بالجنة، كما أعطى اللون الأسود للكافرين سمة الغم والكآبة والحزن في النار.

لقد اكتسبت الألوان وألفاظها بمرور الزمن إلى جانب دلالاتها الحقيقية دلالات اجتماعية ونفسية جديدة نتيجة ترسبات طويلة أو ارتباطات بظواهر كونية أو أحداث مادية أو نتيجة لما يملكه اللون من قدرات تأثرية، فاللون الأخضر ورد عند العرب بمعنى الخصب والنعيم والنماء، وبالمعنى نفسه استعمل القرآن الكريم اللون الأخضر، فمن ذلك قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) (الحج: من الآية63) مما يدل على رحمة الله عز وجل بعباده لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كانا سبباً لعيش الإنسان والحيوان معاً.

ووردت في القرآن الكريم ألفاظ ثانوية ليست لها صفة خاصة وإنما هي ألوان ثانوية تتحقق من خلال الألوان الأساسية الأخرى، فالغبرة إشارة إلى السواد والمدهامة إلى الخضرة، وقد استعمل القرآن الكريم هذه الألوان بصورة لا يمكن أن تحل أية مفردة أخرى محلها، وهي لا تتعارض مع المكتشفات العلمية الدقيقة للألوان وتأثيرها في النفس الإنسانية.

Abstract

Denotations of Colours in the Glorious Qurān

Dr. Ahmmad I. Khidir [*]

Colour has a special importance in human culture in general and Arab culture in particular. The Holy Quran uses colours according to its indications and signs. White colour, for example, indicates something to Arabs differs from that of other nations. According to Arabs, it indicates cheeriness, gladness and happiness, while black colour indicates sadness, sorrowness and gloominess. The Holy Quran uses white to refer to people of Paradise: their faces and clothes, while black is used to signify people of Hell; their sorrowness and gloominess. The same indication goes with other colours. Green colours. The green color indicates growth and fertility, while yellow indicates beauty. Hence, the researcher tries to find the relation between the Arab thought of colour and what the Holy Quran presents.

(*) Dep. of Arabic-College of Arts / University of Mosul